تطور الدراسات الإعجازية ودورها في تشكل الخطاب اللغوي

د/ عاشور مزيلخ
كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر

تمهيد:

لقي الخطاب القرآني اهتمام الكثير من الدارسين، على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم من علماء اللغة والفلاسفة إلى أصحاب الكلام، فأفردوا له العشرات من النظريات وتعمقوا في دراسته محاولين بذلك تحديد وجوه الإعجاز فيه، وقد ساعد هذا الاهتمام بالدراسات الإعجازية في ظهور العديد من النظريات المتعلقة بالإعجاز، لكن السؤال: هل كان الغرض من ذلك الدفاع عن القرآن أم فهم معاني الخطاب القرآني قصد الوقوف على قصد وغرض صاحب الخطاب، نتيجة تفتح البيئة العربية على علوم مختلفة لانتشار الإسلام؟ ومحاولة الأمم الأخرى التقرب من الخطاب القرآني ومعرفة مضامينه؟ أم أنه صار للعرب تذوق فني خاص مبني على العلم؟ خصوصا تلك التيارات التي أثرت في الدراسات القرآنية مما ساهم في تطور الخطاب اللغوي؟

ونحن في هذا المبحث لا نريد استقصاء مسألة الإعجاز بكل أطرافها وهذا غير ممكن ولكن نريد التركيز على أهم النظريات الكبرى التي سعت إلى الفهم والوصول إلى معاني القرآن الكريم ومدى تأثيرها في تشكل الخطاب اللغوي، فجعل من اللغة حية، وعليه فلا بد من دراسة النقاط التالية:

- ✓ أهم الأسباب المؤدية إلى تنوع الدراسات القرآنية.
- ✓ الدراسات الإعجازية وأثرها في تشكل الخطاب اللغوي.

المنارة للاستشارات

معتمدين في ذلك على المصادر التالية:

- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز.
- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة.
- الرماني، النكت في إعجاز القرآن.
- الخطابي، بيان إعجاز القرآن.
- عبد القاهر، أسرار البلاغة.

أولا: أسباب تنوع الدراسات الإعجازية

الخطاب القرآني بألفاظه وعباراته لا يختلف عما ألفه الناس، فكل ما جاء فيه من عبارات وكلمات وأساليب كان يدور على ألسنة العرب فنظموا منه أشعارهم وخطبهم وأمثالهم فوقع عليهم التحدي لكونهم أهل البيان والفصاحة فعجزوا عن معارضته، فجاء الخطاب القرآني عاما شاملا لجميع معاملات الناس منظما لحياتهم وتعاليمهم فتنوعت مجالاته بتنوع مقاصده فاحتوى جميع العلوم الدينية والسياسية والعلمية...

وهنا كان الخطاب القرآني سببا في تنوع الدراسات وظهور العديد من النظريات حاولت فهم سر إعجازه، لكن أين يكمن الإعجاز ووجوه هذا الإعجاز؟ وإن كانت من بين الأسباب المؤدية إلى الاهتمام بالقرآن ودراسته هي:

- ✓ الوقوف على قصد وغرض صاحب الخطاب.
- ✓ إظهار خصائص الخطاب القرآني العامة المميزة قصد ترسخ معانيه.
- ✓ معرفة الأسس العامة للخطاب القرآني.

1/الوقوف على قصد وغرض صاحب الخطاب:

بما أن الخطاب القرآني هو الخطاب الموحي إلى عامة الناس، فهم مدعوون إلى دراسته والتمعن فيه، وإدراك معانيه وتدبر آياته وعندما نقول فهم معاني القرآن الكريم هذا لا يعني أنه نزل وترك دون تفسير، بل الرسول ﷺ ما ترك من آية إلا وفسرها وشرحها وبينها، بل إنه أمر حتى بوضع الآية الفلانية مع الآية

المنارة للاستشارات

الفلانية، ولكن مع تقدم العهد وانتشار الإسلام وذهاب العديد من المسلمين الأوائل الذين كان لهم إدراك وفهم صحيح للقرآن بفضل فطرتهم العربية السليمة، وهذه الميزة افتقدت عند المتأخرين.

وبما أن القرآن الكريم معجزة في الزمان والمكان، فهو خطاب مجدد لحياة الناس اليومية في عاداتهم وتقاليدهم، خصوصا ما تزامن مع انتشار رقعة الدولة الإسلامية، ومحاولة العديد من الأجناس التقرب من الخطاب القرآني، فعرف انتقالا من بيئة عربية لها خصوصياتها ومميزاتها إلى بيئات مختلفة ومتعددة لم تعهدها العرب من قبل، المتميزة بثقافات خاصة، وأدخلوا إلى البيئة العربية علوما ومعارف لم تألفها العرب من قبل، فانتقل ذلك إلى فهم الخطاب القرآني وإدراكه من تلك النظرة الخاصة للبيئة الغربية السليمة إلى الدراسة الجادة الموضوعية، فكانوا ينظرون إلى الخطاب القرآني، نستطيع أن نقول بفعل ثقافتهم المنطقية والفلسفية التي عادة ما تؤدي إلى المناقشة والجدال.

وعند قولنا الخطاب القرآني هو نص موجه إلى الناس عامة فإن فهمه أصبح لا يدرك إلا «بالتذوق الفني المبني على العلم فقد اقتصر فهم هذه الناحية من القرآن الكريم على جماعة قليلة من المسلمين هم الذين كانت بيدهم وسائل هذا التذوق»[1]، مما أدى إلى التنوع في فهم القرآن الكريم حسب أفق كل مجتهد فاتخذت دراسة إعجاز القرآن صورا مختلفة وهذا سوف يكون له تأثير في التحامل على الخطاب القرآني فكان من أسباب تنوع الدراسات القرآنية هو ترسيخ الخطاب القرآني وإظهار خصائصه العامة قصد الدفاع عنه.

2/ إظهار خصائص الخطاب القرآني العامة المميزة قصد ترسخ معانيه:

ومما لا شك فيه أن الدراسة القرآنية اتخذت أشكالا متعددة أثرت فيها التيارات والاتجاهات العقدية السائدة آنذاك، وقد كانت تلك الدراسة المتشعبة بالمنطق والفلسفة، خصوصا عند أصحاب الفرق الإسلامية والمتكلمين، مليئة بالجدل والمناقشة، حيث أطالوا في الكلام مع خصومهم بالحجة والمنطق والدليل، كان هدفهم هو التشكيك في كلام الله، وأن في القرآن تناقضا واختلافا في النظم، فقام مجموعة من العلماء تصدوا لهؤلاء الحاقدين للدفاع عن

المنارة للاستشارات

قرآنهم، وهنا نرى دراسات إعجاز القرآن قد اتخذت مجالا مهما هو ترسخ معاني الخطاب القرآني، والدفاع عنه بدلا أن تبحث وتدرس وجوه الإعجاز في القرآن.

وكان الجاحظ ممن أشهروا أقلامهم صراحة للوقوف في وجه هؤلاء المتشككين، فنراه يثبت عجز العرب أمام بيان القرآن وبلاغته ويأسهم عن معارضته، والإتيان بمثله وذلك في كتابه البيان والتبيين، الذي أشاد فيه بفضل العرب وبلاغتهم وفصاحتهم.

ونجد صاحب كتاب مجاز القرآن أبا عبيدة يذكر فيه سبب تأليفه هذا الكتاب، ويتجلى ذلك من خلال موضوع الكتاب، إلى طرق التعبير القرآني، يثبت أن القرآن هو كلام الله بلسان عربي مبين، ولم يأت بغريب في التعبير لم تألفه العرب، وهذا لكي يرد على الذين طعنوا في لغة القرآن.

وقد حاول ابن قتيبة (ت: 276 ه)ـ هو الآخر مسخرا كتابه تأويل مشكل القرآن، ترسيخا لمعاني الخطاب القرآني، ودفاعا عنه، معترفا بسبب تأليفه لهذا الكتاب قائلا: «...وقد اعترض كتاب الله بالطعن ماكرون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة وأبصار عليلة ونظر مدخول فحرفوا الكلم عن مواضعه»[2].

فكان هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن، مركزا على الآيات التي كانت محل نقاش وطعن من قبل الجاحدين للغة القرآن، واصفا الخطاب القرآني بالمعجزة الكبرى، ومشيدا بعجيب نظمه وعظيم معانيه، مع قلة ألفاظه ومبانيه، مبينا مكانة العرب بما خصهم الله من قوة في الكلام وتنقيحه، فارتقت اللغة العربية عن سائر اللغات السامية بخصائص وسمات، فاستقام لها المعنى باستقامة لفظه، مؤكدا أنه لا يمكن الوصول والوقوف على أسرار القرآن ما لم يلم بأساليب اللغة العربية.

3/ معرفة الأسس العامة للخطاب القرآني:

بما أن لغة القرآن تحدت فصاحة العرب أن يأتوا بمثله أو سورة واحدة، وهذا يقودنا إلى مقارنة لغة القرآن بلغة العرب ولغة الشعر والنثر، فنال اهتمام العديد

المنارة للاستشارات

من العلماء والأدباء والفقهاء والبلغاء منذ القديم فتعددت وجهات النظر فيه فتناولوه بالشرح والتحليل والتفسير، والتأويل لمعرفة سر الإعجاز فيه فدرسوا غريب لفظه ومجازه.

كما تناولوه من جميع مستوياته الصوتية والتركيبية والدلالية والمستوى البلاغي، فجاءت الدراسة عامة شاملة لجميع المستويات.

غير أنه لم يكن فهم الخطاب القرآني على درجة واحدة عند جميع الدارسين، فكل دارس فهمه حسب قدرته واستطاعته وقوة إدراكه، وهذا هو سبب تنوع الدراسات القرآنية في معرفة وجوه الإعجاز في القرآن وتطورها، مما كان له الأثر الكبير في تشكيل الخطاب اللغوي.

ثانيا: الدراسات الإعجازية وأثرها في تشكل الخطاب اللغوي:

1/ نظرية الصرفة وتشكل الخطاب اللغوي

إن إعجاز القرآن متعدد ومتشعب الاتجاهات، لذلك ليس من السهل بيان معرفة إعجازه وبيان شيء من نظمه في نواح متعددة، ذلك كون الخطاب القرآني متجددا في الزمان ومتعددا في المكان ومتفتحا على كل الدراسات.

وليس من السهل كذلك استقصاء جميع النظريات الإعجازية ومعرفة وجوه هذا الإعجاز، ومن المستحيل الإلمام بكل أطراف الظاهرة، وهذا لا يمكن لأي أحد كان، يرجع ذلك إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وكثرة العلماء المسلمين الذين تكلموا في هذا المجال وفقدان الكثير مما قيل فيه.

ولكن سنحاول في هذا المبحث أن نقدم صورة على ضوء المراجع التي بين أيدينا، والإطالة على أهم النظريات البارزة على الساحة الإسلامية التي تمثل رافدا مهما في تشكل الخطاب اللغوي من خلال تعدد آراء العلماء، هل القرآن معجز بلفظه أم بمعناه أو بكليهما؟ أم أنه معجز بنظمه (نظرية النظم)؟، أم أن الإعجاز وقع بصرف الناس عن الإتيان بمثله (نظرية الصرفة)؟، أم في بلاغته (نظرية الإعجاز البلاغي)؟، أم بفصاحته (نظرية الفصاحة؟ أو الإعجاز الصوتي)؟

المنارة للاستشارات

ومعظم هذه الاختلافات والتي سوف تتمكن، من خلالها مدى مساهمتها، في تشكل الخطاب اللغوي، وبما أن مجال البحث واسع ولكن سنحاول أن ننتقي من الآراء ما له اتصال مباشر بتطور الخطاب اللغوي في ضوء الدراسات الإعجازية.

ملخص هذه النظرية حسب رأى النظام أن الله تعالى قد صرف العباد عن معارضة القرآن، وسلبهم القدرة على ذلك ولولا أن عاقهم آمر خارجي لكانوا قادرين على أن يأتوا بمثله وعلى ما هو أحسن منه نظما وتأليفا»[3].

فقد صرف الهمم عن معارضة القرآن الكريم، ولولا هذا الصرف لكان باستطاعتهم معارضة الخطاب القرآني في بلاغته وفصاحته، والإتيان بمثله بما هو أبلغ منه، فقد ثبت في فصيح كلامهم ما يقارب كثيرا من القرآن.

فقدرة البلغاء على الإبداع والإتيان بجميع صنوف البلاغات، وتصرفهم في جميع أجناس الفصاحة، والقدرة على جميع المحسنات البديعية، هذه القدرة الإبداعية المتوفرة لدى العرب تجعلهم قادرين على الإتيان بمثله، فقد قالوا من قبل من قدرة نظم كلمتين بديعيتين لم يعجز عن نظم مثليهما وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثالثة إلى الأولى وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية والسورة[4].

وقد قرر الخفاجي أن كلام العرب ما يضاهي القرآن بلاغة وفصاحة، وهنا يصير للسان العربي القدرة على محاكاة القرآن والإتيان بما هو أفصح وأبلغ من لغة القرآن.

لكن الخطاب القرآني تحدى فصحاء العرب، وهم فرسان هذا الميدان أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور، ثم أن يأتوا بسورة واحدة، وهنا وقع عليهم التحدي وهم النهاية في البلاغة، في فترة كان اللسان العربي أرقى مرتبة في تهذيب اللغة، فكانوا يتبارون في البلاغة ويفخرون بالفصاحة، وكانت لهم مجالس وأيام يعرضون فيها أشعارهم.

وقد عرفت اللغة أزهى عصور البيان حتى « بلغ بالأمة في ذلك العصر من العناية بلغتها حتى أدركت هذه اللغة أشدّها وتمّ لهم بقدرة الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها»[5]، ولكنهم لم يجدوا أبدا في مجاراته فعجزت ألسنتهم وأبصارهم وعقولهم عن الإتيان بمثله، فما كان سبيلهم إلا معارضته بالسيوف والكذب

المنارة للاستشارات

والتشكيك، ومنعوا صوت القرآن أن يسمع خارج ديار المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم، واتهموا صاحبه بالجنون وأنه ساحر حتى لا ينتشر القرآن بين العرب، ومنعوا الناس من الاستماع إليه، لكونه خطابا يشد إليه قلوب السامعين. ونفهم من ذلك أن عدم الاستطاعة والإتيان بمثله في بلاغته وأسلوبه وألفاظه وعباراته ونمط تركيبها أدركوا أنهم أمام خطاب يحسن توظيف اللغة، وليس بمقدورهم الإتيان بمثله. ونحن لا ننكر أن العرب قد بلغت ما بلغت في حسن توظيفها للغة فقد كان لهم من الشعراء والخطباء كأميَّة بن الصَّلت وقَّس بن ساعده، كانت لغتهم مشحونة بالتوحيد فدعوا في أشعارهم إلى الحنفية، لكن لماذا انصرفوا عن القرآن ولم ينصرفوا عن هذه الأشعار، ولم يجدوا سبيلا لمقاومته بذلك؟ لأنهم وجدوا في الخطاب القرآني سرا من أسرار الإعجاز، يكمن في حسن اختيار الألفاظ، ووضعها في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، ليجد المعنى في لفظه صورة كاملة ويجد اللفظ مطابقته لمعناه، فجاء خطابه اللغوي خارقا للعادة وذلك للتقارب الموجود بينه وبين أفصح لغة العرب.

وقد علل الخطابي عن ذلك قائلا «وأعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أحسن المعاني»[6].

وقد وفق الرماني في جعل البلاغة على ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة ومنها ما هو في أدنى طبقة، فما كان في أعلاها فهو معجز وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. وهو هنا يريد أن يثبت ويدل القارئ على بلاغة القرآن ليبرهن على إنها أعلى مراتب البلاغة، وأنَّ العرب عجزت عن الإبداع والإتيان بمثل ما جاء به القرآن الكريم، رغم أنه لم يخرج عن معهود العرب في كلامهم «فمن حروفهم ركبتْ كلماته ومن كلماتهم ألِّفتْ جمله وآياته وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه فأي جديد في مفردات القرآن لم يعرفْه العرب من موادِّها وأبنيتها وأي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها حتى نقول إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية؟»[7].

المنارة للاستشارات

وعليه فالخطاب اللغوي حسب أنصار نظرية الصرفة للإعجاز اللغوي، هو القدرة على الإبداع والإحاطة بجميع أسماء اللغة بألفاظها الموضوعة لتلك المعاني، وإدراك جميع معاني الأشياء الموضوعة لتلك الألفاظ مع توظيف جيد لوجوه النظوم التي بفضلها يحصل الائتلاف والارتباط بعضها ببعض، مما يسمح باستعمال أفضل العبارات إلى أن يصير الكلام بليغا.

2 / **نظرية النظم وتشكل الخطاب اللغوي:**

اهتم علماء اللغة، من الجاحظ وابن قتيبة والقاضي أبو الحسن وعبد الجبار الخطابي إلى الجرجاني، بدراسة الكلام وكيفية نظمه مبينين مقوماته وأصوله وأساليبه وبلاغته.

فنظروا إلى الخطاب القرآني بأنه معجز من جهة نظمه وتأليفه، وهذا النظم ليس إلا تعلق الكلم بعضه ببعض، أي تعلق الاسم بالاسم والاسم بالفعل، وتعلق الحرف بهما وهي أصلية في نظم الكلام وتأليفه سواء كان الكلام بشريا أم وحيا.

إلى غاية هنا فإن كلام العرب لا يخلو من هذه الأمور الثلاثة، فالفعل هو الفعل سواء في الخطاب القرآني أم في كلام العرب (شعراً ونثراً) والمبتدأ هو المبتدأ والخبر هو الخبر.

ولكن كيف تميز الخطاب القرآني بنظمه وما هو الجديد الذي تجدد في الخطاب القرآني فقهر البلغاء والفصحاء.

وقد فرق علماء اللغة بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه، فاهتم الجاحظ باللفظ من جيده وحسنه وبهاء رونقه وتقديمه على المعنى لذا فالنظم عنده فكرة لفظية حسن الصياغة ودقة في التأليف بين الألفاظ وكمال التركيب.

وما نلاحظه أن الجاحظ يشيد بلغة القرآن وإعجازه فيقول: «وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثلها العباد»[8].

الجاحظ هنا يفرق بين نظم القرآن ونظم سائر الكلام وتأليفه، يريد أن يجعل من الخطاب القرآني والوصول إلى أسلوبه بمعنى أوسع عند رصف الألفاظ.

المنارة للاستشارات

أما ابن قتيبة فقد وصف الخطاب القرآني بالمعجزة الكبرى لعظمة نظمه وقوة معانيه، فأشار إلى أهمية اللغة العربية وخصائصها وأنه لا يستطيع أحد أن يفهم أسلوب القرآن ومعانيه ما لم يلم بأساليب اللغة، وأن أسلوب القرآن لم يخرج عما ألفته العرب في كلامها، وأن سر بلاغته وإعجازه هو نظمه وتركيبه على هذا النمط، وأن المعنى يختل إذا اختل نظام التركيب، معنى ذلك أن القرآن يستحيل ترجمته، ففي الترجمة إخلال للمعنى وسوف يفقد صفة من صفات إعجازه[9].

أما صاحب نظرية النظم ومكتشفها القاضي أبو الحسن عبد الجبار، فلا يرى الكلمة فصيحة في نفسها وإنما الفصاحة تكمن في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة وعند الضم نلاحظ أن الكلمة تأخذ صفات مختلفة، ولا بد من ملاحظة تغير حركاتها في الإعراب، وإبدال موقعها في التقديم والتأخير، وهذه إشارة تدعو إلى توخي معاني النحو.

فالأسلوب والأداء ومراعاة الصياغة النحوية، هي أساس الخطاب القرآني، بها يتحدد الخطاب اللغوي بتحديد الكلام من خلال الأسلوب والأداء الجيد، ومراعاة الصياغة النحوية، وليس فقط حسن اللفظ والمعنى كما أرجعه البعض أنه لا يوجد في الكلام إلا اللفظ والمعنى، وذلك أن سر الإعجاز لا بد أن يكون في كل آية بغض النظر عن معناها وفحوى خطابها.

كما يري الخطابي في اختلاف أجناس الكلام، أنَّ منها البليغ الفصيح الجائز، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، منها الرصين القريب الطلق، ودرجاتها في البلاغة متباينة منها الجزل السهل الرسل.

وأن الخطاب القرآني قد حاز من كل قسم من هذه الأقسام حظه وبامتزاجها يشكل نمط من الكلام[10].

فجاء الخطاب القرآني عنده ساطع الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف مضمنا أحسن المعاني، وعن طريق التوظيف اللغوي الجيد جمعت لغة القرآن بين كل هذه الأساليب جميعا لا يتاح لبشر مثله فهو يرجع الكلام إلى ثلاثة عناصر، لفظ حامل للمعنى، ومعنى به قائم، ورباط ناظم لعلاقة اللفظ والمعنى[11].

المنارة للاستشارات

ومنه فالخطاب القرآني هو القدرة على الإحاطة بجميع ألفاظ اللغة ومعانيها ومعرفة جميع وجوه النظوم.

والخطاب القرآني في نظر عبد القاهر ليس فقط تأليف الألفاظ وتنظيم مخارج الحروف وإنما النظم أن يخضع لقواعد وأصول يجب أن يراعيها الناظم ليصل إلى قمة الجمال والروعة في نظمه.

وبما أن المعاني هي الأساس عند الجرجاني التي يجب أن تؤخذ في الحسبان عند نظم الكلام لكون الألفاظ دالة على المعاني في النطق خاضعا لقواعد النحو وأصوله، فالمعنى هو محور النظم عند الجرجاني وجوهر الكلام[12]، أي أن النظم وراء اللفظ والمعنى، وهنا يكون عبد القاهر قد أخرج النحو من نظامه الجاف الشكلي، وأخضعه لفكرة النظم فظهر مصطلح التذوق البلاغي من تقديم وتأخير وجمع وتثنية، أدى إلى ارتباط النحو بعلم المعاني، وعلم المعاني يبحث في هذه المسائل، فربط عبد القاهر علم المعاني بفكرة النظم، وهنا يكون النظم ما هو إلا ترتيب المعاني أولا ثم تأتي الألفاظ لتستوعبها، وكان هذا دافعا لعبد القاهر لدراسة مجموعة أخرى من المصطلحات، كعلاقة اللغة بالفصاحة وصلتها بالنظم، ومشكلة اللفظ والمعنى والاهتمام بالكلمة ودخولها في التأليف.

كما سعى إلى إثبات أن الألفاظ تتفاضل إلا إذا اندرجت في سلك التعبير وانظم بعضها إلى بعض، وانسجمت مع ما قبلها وما بعدها وهذه هي بلاغة الكلام وفصاحته، وهي تلتقي تماما مع فكرة النظم، والملاحظ هنا أنَّ عبد القاهر لا يميل إلى زركشة الألفاظ فهي تبهم المعاني، وأن الألفاظ المفردة لا يقع بينها تفاضل دون أن تندرج في الكلام.

إذا الخطاب اللغوي حسب عبد القاهر هو ذلك النظم العجيب الذي تندرج تحته المعاني، وصور البيان ووجوه البديع وذلك باعتبار كل منها لونا من ألوان التعبير، وعن طريقه تنتظم معاني المفردات مع أوزانها الصوتية المختارة لها في تركيب الحركات والسكنات مع مراعاة الوزن حرصا على الإيقاع اللفظي وتناسق الفواصل، مؤتلفة مطابقة لمضمون ما قبله فيكون الكلام متناسقا غير

المنارة للاستشارات

متنافر، تندرج تحته المعاني وصور البيان ووجوه البديع، وذلك باعتبار كل منهما لونا من ألوان التعبير، وهذا هو مدار النظم عند عبد القاهر.

3/ الإعجاز البلاغي وتشكل الخطاب اللغوي:

كان للشعراء والخطباء دور كبير في الساحة العربية، خلق نوعا من التنافس فيما بينهم، وكانت نتيجة ذلك، تطور مستوى الخطاب لديهم في التعبير والتصوير وقوة المعاني والأسلوب، كما كانت الكلمة فيهم تفعل ما لا تفعله السيوف، فجبلوا على حب البيان الرفيع فصاروا أصحاب البيان الرفيع والبلاغة والأدب، فجاء الكلام عذبا جميلاً، تارة جمالية اللفظ ومرة جمالية المعنى، وأحيانا تذهب المعاني ضحية للسجع والقافية فجاء كلامهم مشحونا بالكذب تارة، هدفهم حلاوة البيان وطراوته، فشاع بينهم أعذب الشعر وأكذبه، وكل شاعر التزم الصدق وترك الكذب نزل شعره، وهذا ما نجده في شعر من أسلم من فحول الشعراء، كلبيد بن ربيعة، وحسان بن ثابت لم يكن شعرهما من الجودة كما كان في العصر الجاهلي، وحينما تنظر إلى الخطاب القرآني تجد أن توظيف اللغة فيه جاء ممثلا أرقى توظيف للخطاب اللغوي فتشرفت اللغة بهذا، فبلغ من الدقة والجمال في الألفاظ والمعاني فارتقت بذلك لغته عن لغة التخيلات الشعرية والتشبيهات والاستعارات الوهمية.

فجاءت لغة الخطاب القرآني في منتهى الروعة، في عظمة المعاني وجمال المباني لا يبعث على الملل عند قراءته، وسهولة ألفاظه ولطافة ودقة عباراته وإيقاعه الخاص.

ومن إعجازه البلاغي توظيفه الجيد للألفاظ، من تجنب كثرتها ومراعاة الاختصار، بعيدة عن الإيجاز المخل والإطناب الممل.

أما الرماني فذهب إلى أن الخطاب القرآني كله في نهايته حسن البيان[13]، وحسن البيان عنده على مراتب، فأعلاها مرتبة جمال التعبير وروعة الأداء من تعديل النظم يحسن في السمع ويسهل في اللسان، وتتقبله النفس فجعل من بلاغة القرآن أعلاها رتبا وهي التي تعجز قوى البشر عن إدراكها فيقع عندها التحدي (الإعجاز) وما دون ذلك فهو في استطاعة البلغاء.

المنارة للاستشارات

يريد بذلك الرماني أن يصل، إلى أن التوظيف اللغوي في القرآن هو أعلى رتب البلاغة، فتفرد القرآن بأسلوبه في حسن استعمال الفنون البلاغية العشرة والمقسمة عنده «الإيجاز والتشبيه، الاستعارة، التلاؤم، التواصل، التجانس، التصريف، التضمين، المبالغة وحسن البيان»[14].

وأشاد الباقلاني ببلاغة الخطاب القرآني قائلا بأنه «بديع النظم عجيب التأليف وإن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم»[15]، فهو ينظر إلى الخطاب القرآني ببلاغته وحسن توظيفه للغة فاق معهود العرب في نظامها للكلام إلى ما يتميز به من البسط والاختصار والجمع فخالف ظروف الصناعة التي يعرفها الشعراء فكأن النظم عنده هو الخطاب اللغوي، المحكم التوظيف الذي تندرج تحته جميع ألوان البلاغة.

وحسب نظرية الإعجاز البلاغي أن لغة القرآن معجزة وذلك لحسن توظيفها لفنون البلاغة العشرة فتشكلت بنية الخطاب اللغوي تشكيلا خرج عن معهود العرب في نظمها للكلام، ارتبطت ألفاظه بترابط الجمل، وتترابط الجمل بترابط عناصر الموضوع وفق دلالتها وبحسب ما يقتضيه الخطاب.

وبغض النظر عن أهمية اللغة في المجتمع العربي منذ القديم تعتبر الدعامة الأساسية لنقل أحاسيسهم وذوقهم وفلسفتهم الجمالية.

فإن الخطاب القرآني هو في حد ذاته حدث بلاغي ليس فقط طريقة في الكلام بل طريقة في التفكير.

4/ نظرية الفصاحة (الإعجاز الصوتي) وتشكل الخطاب اللغوي:

أساسها هو إعطاء قيمة صوتية للغة القرآن في ألفاظه وتراكيبه، والملفت للانتباه اهتمام الرماني بهذا النوع من الإيجاز قائلا «والملائم في الطبقة العليا للقرآن كله وذلك بين لمن تأمله... والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما... والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة»[16].

المنارة للاستشارات

وهكذا نجد أن الرماني بإشارته إلى فكرة التلاؤم هي أساس توظيف الكلام وفهمه، من خلال تعديل الحروف أثناء تأليف الكلام مما يساعد المتكلم والمستمع في تقبل المعنى.

وهذا ربما جعل الرافعي يجعل من الطاقة الصوتية أساس فصاحة الخطاب القرآني، وأنه أفحم العرب وهم أصحاب الفصاحة يقول: «رأوا حروفه في كلماته في جملة ألحان لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسقها قطعة واحدة قراءتها من توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى وأنه أمر لا قبل لهم به وكان ذلك أبين في عجزهم»[17].

إذا سر إعجاز القرآن هو في ترتيب حروفه لا في كلماته، الرافعي هنا جعل من الانفعال النفسي عاملاً مهماً في ترتيب الأصوات، وأن مادة الأصوات ما هي إلا مظهر للانفعال النفسي، وهذا الأخير هو سبب تنوع الحركات المختلفة في اضطرابها وتتابعها، فالرافعي يجعل من الصوت الذي للإيجاز والإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والمد مما هو بلاغة في لغة الموسيقى على حد تعبيره[18].

فانفرد الخطاب القرآني بهذا الوجه من الاستعمال الرائع، في اختيار الحروف وترتيبها مع مراعاة أصواتها ومخارجها ومناسبة بعضها لبعض في صفاتها وخصائصها.

فانفرد على غير كلام العرب بلغته الخاصة وخرج عن اللغة العامة ما عرف عند الرافعي باللغة النفعية وهي اللغة الممثلة للعربية على الإطلاق «لذهب مع كلام العرب ثم لتدافعته العصور والدول إن لم يذهب ثم يبقى أمرهُ كبعض ما ترى من الأمور الإنسانية لا ينفرد ولا يستعلي»[19].

واللغة الخاصة هي اللغة الإبداعية بنظمها للألفاظ وترتيبها للمعاني، وتصريفاتها المرتبطة بطبيعة المتلقي، وملاءمة الألفاظ على حروفها وحركاتها وأصواتها ومناسبة بعضها لبعض.

ومنه فإن قدرة اللغة على التعبير، وإحالة الأشياء الموجودة في الطبيعة إلى معان، وتصورها في نفس المتكلم، يفهمها السامع، وذلك بالتوظيف الجيد للأصوات وحسن اختيارها وترتيبها، بحيث ينتظم الكلام بأسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها وبين المعاني وصورها.

المنارة للاستشارات

ليسهل تطور الأشياء في العالم الخارجي، وتحس بها النفس وهذه هي اللغة التي تضيف إلى الخطاب صفة البلاغة.

الهوامش:

1- عمر الملا حويش: تطور دراسات إعجاز القران وأثرها في البلاغة العربية، ط جامعة بغداد الدولية، 1972، ص.220

2- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن، تح: سيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1393،1.1973، ص.18

3- عمر الملا حويش: تطور دراسات إعجاز القران، ص244

4- المرجع نفسه ص.249

5- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم نظرات جديدة في القران دار القلم القاهرة طبعة:7 سنة:، 1997 ص.84

6- عمر الملا حويش: تطور دراسات إعجاز القرآن، ص220.

7- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، بيان إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، وزغلول سلام ص23.

8- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: البيان والتبيين تح: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، (ب،ت،ط)، ، ج90/4

9- ينظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص.25

10- الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القران، ص.24

11- المصدر نفسه، ص .28

12- درويش الجندي: نظرية، عبد القاهر في النظم، ص.74

13- ينظر: ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، مصدر سابق ص:.31

14- الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص.71

15- الباقلاني: إعجاز القران، طبعة المعارف تح سيد صقر، ص .35

المنارة للاستشارات

16- الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله زغلول، نشر دار المعارف بمصر، ص96.

17- مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي بيوت،ط2، 1974/1414، ج2/160.

18- ينظر: الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه واعتنى به الأستاذة نجوى عباس، مؤسسة المختار القاهرة ،ط1، سنة 1423 ـ 2003، ص318.

19- الرافعي: المصدر نفسه، ص285.

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات